الفصل الرابع
مصطلحات صفات الحروف

المبحث الأول: مصطلحات الصفات المتقابلة الواردة في الرسالة

ضمَّن ابن سينا رسالته عدة مصطلحات للصفات المتقابلة وقد جاءت في معظمها مقرونة بالوصف الفيزيولوجي، لأن منطلقه أساسا هو حركة الأعضاء، وما ينتج عنها من هيئات عارضة تتبع نطق الحروف وهذه المصطلحات هي:

1)- مصطلحا الإطلاق والحبس: Explosion et implosion:

(أ) **الإطلاق**:Explosion

في العربية حروف تكون حبسية فتحتاج إلى أن تكون عملية حبس إطلاقات ينتج عنها تمام حدوث الحروف، ودرجة الإطلاق تختلف من حرف لآخر بحسب درجة الحبس وقوته.

وقد أورد ابن سينا مصطلح الإطلاق كمقابل لمصطلح الحبس وهما متلازمان بالضرورة لأن الحبس لا بد له من إطلاق حتى يتحقق تمام الحرف.

وأشار إلى أن الحروف منها: المفردة والمركبة، فأما المفردة فهي التي تحدث عن« حبسات تامة للصوت والهواء الفاعل للصوت»[1]، وهي التي يكون فيها الإطلاق بعد الحبس، وعادة ما يكون فيها الإطلاق قويا مثل: الباء والتاء والدال... كما أن الإطلاق يوجد مع الحروف التي اصطلح عليها ابن سينا الحروف المركبة[2]، إلا أنه يكون مع الحبس لا بعده، ومن هذه الحروف: الشين والسين والزاي. والحبس والإطلاق في الحروف المركبة يكون في مرحلة واحدة.

وتتبين علاقة الحبس بالإطلاق من خلال ما تشترك فيه الحروف المفردة ببعضها البعض، والحروف المركبة ببعضها البعض أيضا، فالحروف المفردة تحدث «في الآن الفاصل بين زمان الحبس وزمان الإطلاق[3]»، فالحبس وحده لا يحقق الحرف كما أن الإطلاق وحده لا يحققه، فكان لا بد من توفر الحبس والإطلاق معا.

---

[1]- ابن سينا- رسالة أسباب حدوث الحروف- ص60.

[2]- الظاهر أن سبب هذا الاصطلاح هو كون هذه الحروف لا تحدث دفعة واحدة لأن الحبس فيها جزئي، ويتم مع الإطلاق، أما المفردة فلأن الحبس فيها يتم دفعة واحدة وكذلك الإطلاق.

[3]- ابن سينا- رسالة أسباب حدوث الحروف- ص61.

أما في الحروف المركبة فلا يوجد زمان فاصل بين الحبس والإطلاق «وإنما تمتد في الزمان الذي يجتمع فيه الحبس مع الإطلاق[1]»، وهناك بعض الحروف المركبة التي يحدث فيها ضغط في الهواء بسبب عوامل فيزيولوجية يحدث مع إطلاقٍ قد يقرب إطلاق الحروف المفردة وذلك مثل: الخاء، فالضغط الحادث في الموضع الذي بين اللهاة والحنك يجعل الإطلاق يحدث أثناء الحبس لترتفع قوته بعد انتهاء الحبس وارتفاع العضو، وهذا قد لا نجده في الحروف الأخرى نحو: السين والشين، وحقيقة الإطلاق عند ابن سينا ما هو إلا «تجافي العضو عن موضعه حسب تعبير النحاة العرب»[2].

(ب) الحبس:I implosion

وهو مقابل الإطلاق، ولذلك فالحديث عن واحد منها يقتضي الحديث عن الآخر وفي المعاجم العربية ورد الحبس كما يلي: «حبسه يحبسه حبسا فهو محبوس وحبيس...، والحبس ضد التخلية...والحبس المحبسة والمحبس: اسم الموضع[3]»، فهو عبارة عن توقف الحركة العضوية وحدوث الشيء، ومن هذا المنطلق سميت بعض الحروف بالحبسية لأن الهواء: يحبس في موضع معين، ثم يحدث الانطلاق، ولم يصفها ابن سينا مباشرة بأنها حبسية، وإنما بين أنها تحدث عن حبسات تامة، وهذا هو المنهج المعتمد عند النحاة أيضا في الاصطلاح، فالانطباقية سميت كذلك لأنها تحدث بانطباق سطح اللسان على سطح الحنك الأعلى، فمن الحروف التي يكون فيها الحبس تاما: القاف والكاف والجيم[4]، ومن الحروف التي يكون فيها الحبس غير تام الهاء والشين والصاد.

ويبين الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح أن ابن سينا لا يريد من الحبس إلا «لزوم العضو موضعه سواء كان متحركا أو ساكنا وبهما يصف الفرق القائم بين ما يسميه الحروف المفردة أو الحبسية والحروف المركبة أو االتسريبية (الشديدة والرخوة) كما فعله سيبويه»[5].

---

(1)- المصدر نفسه- ص62.

(2)- عبد الرحمن الحاج صالح- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية – ح2- 184.

(3)- ابن منظور- لسان العرب- ج3- ص09 (مادة حبس).

(4)- الظاهر أن هذه الجيم شديدة.

(5)- عبد الرحمن الحاج صالح- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية- ص184.

ففي الحروف المفردة يلزم العضو موضعه سواء في حالة السكون أو الحركة، أما في باقي الحروف المركبة فلا يلزم، ويكون الحبس جزئيا أو غير تام كما عبر عنه ابن سينا.

2)- مصطلحا الثقل والحدة: Grave et Acuité

(أ) **الثـــقل**:Grave

إن الحديث عن الحدة والثقل مرتبط بالحركة العضوية لأعضاء النطق ابتداء والأسباب (الجزئية) الفيزيائية، فبعد حفز الهواء ومروره بالمقاطع[1] الموجودة في الجهاز النطقي واختصاصه بمقطع معين.

وضَعْفُ ملامسة السطح الذي يمر عليه الهواء الحافز، كما أن أجزاء من أمواج الهواء الناقلة للصوت غير متراصة، لأن أسباب سبب ذلك الثقل هي اللين والخشونة والرخاوة، وبذلك يكون الصوت ثقيلا.

فالحدة والثقل تظهران في الحرف لا في الصوت، وهذا ما أكده ابن سينا حينما قال: «أما نفس المتموج فإنه يفعل الصوت، وأما حال المتموج من نفسه، باتصال أجزائه وتملسها أو تشظيها وتشذبها فيفعل الحدة والثقل، أما الحدة فيفعلها الأولان، وأما الثقل فيفعله الثانيان[2]».

فالتموج، وهو مصطلح يشير إلى وجود عملية دفع من الداخل (الرئتين مع ضغط القفص الصدري). مرتبط بالعملية الثابتة وهي التشظي والتشذب (أي التفرق) الذي يرفق التموج نفسه.

---

[1]- مصطلح المقاطع قصد به بعض الصوتيين العرب كابن جني: المخارج أي أماكن اعتراض الصوت الذي يخرج من النفس يقول ابن جني:" اعلم أن الصوت عرض يخرج من النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته" انظر سر صناعة الإعراب- ص19- فهي مواضع يقطع فيها امتداد واستطالة الصوت بفعل الأعضاء.

[2]- انظر ابن سينا- الشفاء- ج3- ص10- نقلا عن ابن سينا- رسالة أسباب حدوث الحروف- ص59 (هامش5).

ولم يكتف ابن سينا بهذا الجانب، بل ربط ثقل الصوت وحدته بالغضاريف الحنجرية، ففي حالة تضييق الحنجرة الناتج عن تقارب الذي لا اسم له من الدرقي وتباعده عنه يحدث الصوت الحاد والثقيل[1]، ومن المؤكد أن هذا مرتبط بالحروف الحلقية كالهمزة لأنها صوت حاد والهاء لأنها صوت ثقيل.

(ب) الحـــدة:Acuité

إن صفة الحدة المرتبطة بمجموعة من الحروف الناتجة عن قوة القارع والمقروع وضغط الهواء في مخرج ما هي خلاف الثقل التي سبق التفصيل فيها.

فالحدة ناتجة عن قوة ضغط الهواء المتموج باتصال أجزائه وتملسها[2]،فهذه القوة تجعل الهواء يصطدم بقوة في محبس معين.

وأحسن تفصيل في معنى الحدة وسببها ما قاله ابن سينا في كتابه الشفاء حيث يقول:«وقد علمت أن الحدة سببها القريب تلزُّزٌ وقوة وملاسة سطح، وتراص أجزاء من موج الهواء الناقل للصوت... أن أسباب الحدة صلابة المقاوم المقروع أو ملاسته أو قصره أو انحرافه أو ضيقه إن كان مخلَّص هواء، أو قربه من المنفخ إن كان أيضا مخلص هواء...»[3].

فالسبب المباشر لهذه الحدة هو اجتماع وانضمام أجزاء موج الهواء بسبب ضغط وقوة المحبس أيضا، لتأتي بعدها أسباب أخرى مكملة للسبب المباشر المرتبط بالتموج، وهيئة هذه الأسباب تتعلق بالمقروع من حيث صلابته أو ملاسته وقصره أو انحرافه أو ضيقه.

ولم يحدد ابن سينا الحروف الثقيلة والحادة، ولكن ما قاله عند وصفها يجعل القارئ يستنتج ما هي هذه الحروف، وإن كان هذا الوصف غير متوفر عند النحاة بهذا المفهوم والتوضيح، فالحروف المفردة كلها حروف حادة، والمركبة كلها حروف ثقيلة.

---

[1]- انظر المصدر نفسه - ص65-66.

[2]- المصدر نفسه- ص59.

[3]- نقلا عن رسالة أسباب حدوث الحروف- ص59.

المبحث الثاني: مصطلحات متقابلة ورد طرف منها فقط

وردت في الرسالة مصطلحات هي في أصلها متقابلة، إلا أنه لم يرد ما يقابلها، وهذا دليل على أن المؤلف لم يؤلف رسالته بالطريقة المعهودة عند النحاة وعلماء التجويد في دراسة الأصوات كسيبويه في الكتاب، وابن جني في سر صناعة الإعراب، وابن الجزري في النشر في القراءات العشر، وإنما راح يشرح في مجالات أخرى تشريحية، وأما الصفات فعندما تعترض طريقه فيشير إليها أحيانا ويدرجها في الجانب الفيزيولوجي أحيانا أخرى[1]، والدليل عل ذلك أن الصفات لم ترد جميعا، وإنما ورد جزء منها، ومن هذه المصطلحات:

1. الشـدة: Occlusion

إن معظم كتب الصوتيين العرب تتضمن تقسيم الحروف إلى شديدة ورخوة، فصار بذلك مصطلح الشدة مقرونا بمجموعة من الحروف وهي مجموعة في قولك: (أجدك قطبت) إلا أن ابن سينا لم يوظف مصطلح الشدة أو الشديد بهذه الطريقة وفي هذا الإطار، وإنما وظفه في سياقات ومقامات أخرى متعلقة بالحبس وضغط الهواء ما عدا في حالة واحدة فقط وصف فيها الباء بالمشددة[2].

إن الحبس الحادث في أجزاء معينة من اللسان يكون أحيانا شديدا كما هو الحال في التاء والطاء العربيتين، فهذه حروف شديدة انطلاقا من شدة الحبس بطرف اللسان، وإن لم يصرح ابن سينا بذلك، فابن سينا يركز على الأعضاء مباشرة والظواهر الفيزيولوجية..

---

[1]- ويمكن تصفح كتب الصوتيين العرب، والتأكد من ذلك، وبهذه الحقيقة يتبين أن علة التسميات والمصطلحات الواردة في الرسالة هي علة فيزيولوجية قبل كل شيء، وقد عرفنا ما ذكره مثلا الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح عن مصطلحي: الحبس والإطلاق المرتبطين أساسا بالأعضاء الفاعلة في عملية النطق من حيث لزوم العضو موضع النطق ونبوه وارتفاعه، بل وصل الأمر بابن سينا أن ربط وقرن بعض المصطلحات كالثقل والحدة بالغضاريف الحنجرية.

[2]- وذلك في لغة الفرس، حيث يحدث شد قوي للشفتين، وهذا يعني أن هذه الباء قوية جدا، وقد تكون أقوى من الباء العربية- لأن المؤلف وظفها باستعمال ألفاظ دالة على القوة والشدة (راجع الرسالة- ص92).

ولم يكتف بالحديث عن الشدة في الحروف العربية فقط، بل تحدث أيضا عنها في حروف لغات أخرى، ففي لغة الفرس يكون إطباق طرف اللسان أشد في (جاه[1])، فصار هذا الحرف شديدا، وهناك أيضا فاء تكاد تشبه "الباء" في لغة الفرس في (قزوني[2]) والشدة الموجودة فيها ليست كالتي في الباء وإنما في ضغط الهواء الحادث عن تضييق مخرج الصوت وكذا الباء المشددة، وذلك في لغة الفرس في "بيروزي"، حيث تحدث بشد قوي للشفتين عند الحبس[3].

فيمكن القول إن هذه الحروف كلها شديدة، سواء التي في لغة العرب أو التي في غير لغة العرب والشدة يقابلها الرخاوة، وهذا التقسيم نجده بطريقة منظمة في معظم كتب الصوتيين العرب خاصة النحاة وعلماء التجويد، إلا أن ابن سينا لم يورد في رسالته ما يقابل الشدة أثناء شرحه، وإنما أورده في كتاب الشفاء في جزئه الثالث، حيث أشار إلى ذلك المحققان في الهامش، وحروف الرخاوة هي غير الشديدة والتي بين الشديدة والرخوة وهي: الثاء والحاء والخاء والذال والزاي والظاء والصاد والغين والفاء والسين والهاء.

والرخاوة كما جاء في لسان العرب «قال ابن سيده: الرِّخو والرَّخو والرُّخو: الهشُّ من كل شيء، غيره هو الشيء الذي فيه رخاوة... والحرف الرخو هو الذي يجري فيه الصوت...»[4]، فالرخو من الحروف لا يكون فيه حبس الهواء ولا ضغط، وإنما تكون هناك سهولة في النطق وليونة في الأعضاء مع وجود تقارب بين هذه الحروف في درجة الرخاوة، فمثلا درجة الرخاوة في الهاء والحاء أقوى من العين.

ومن المصطلحات التي تندرج ضمن المتقابلة إلا أن المؤلف أورد أحد الطرفين دون الآخر.

---

[1]- انظر ابن سينا- رسالة أسباب حدوث الحروف- ص91.

[2]- المصدر نفسه- ص59 (هامش 5).

[3]- انظر المصدر نفسه- ص92.

[4]- ابن منظور- لسان العرب- ج14- ص314- (مادة رخا).

2. الهمس: Non voisées

إن الاقتصار على ما ورد في الرواية الأولى فقط من حديث ابن سينا عن الهمس غير كاف، فلا بد من التطرق بالتفصيل إلى ما ورد في الرواية الثانية، فصفة الهمس لم ترد في حروف العربية وإنما ذكرها مع حروف من لغة الفرس، وهذه الحروف فيها الشدة وقوة الاعتماد.

والهمس في هذه الأحرف الثلاثة ليس كالذي نعرفه في الحروف المهموسة العربية، لأن الهمس فيها يشكل أهم خاصية، بينما في الأحرف الثلاثة الموجودة في لغة فارس فالهمس جزئي يأتي بعد الإطلاق فقط، كما أن الحروف المهموسة في العربية تسريبية لا يوجد فيها حبس ولذلك فهي رخوة كما سبق وأن ذكرت.

وفي الرواية الثانية كلام عن هذه الحروف الثلاثة إلا أن صفة الجيم مبتورة عنها، وتكتسب صفة الصفير اليابس، وتأخذ هذه الحروف هيئات، فتارة تضرب إلى شبه الزاي حيث يحدث هزٌّ كالذي في الزاي، وتارة إلى شبه السين وتارة أخرى إلى شبه الصاد[1].

وهناك أيضا حرف آخر هو الشين الزائية في الفارسية وذلك في قولهم "زُرْفُ" ويكثر فيها الهمس حيث «تحدث عن تقريب اللسان من سطح الشجر وتهزيز سطحه وإحداث الهمس فيه»[2].

فنلاحظ أن ابن سينا رغم حديثه عن حرف حرف من الحروف العربية إلا أنه لم يتحدث عن صفة الهمس في الحروف العربية المهموسة المعروفة، وهذا ما لا نجده غائبا في كتب أغلب الصوتيين العرب.

والصفة المقابلة للهمس هي صفة الجهر، ولم ترد في الرسالة، ويبقى أن أقول إن الجهر صفة عند الصوتيين العرب تتعلق بقوة اعتماد الحرف في موضعه ويمنع النفس من الجريان حتى ينقضي الاعتماد، وحديثا يعتمد في تحديد الجهر على اهتزاز الأوتار الصوتية.

---

[1]- انظر: ابن سينا- رسالة أسباب حدوث الحروف- ص128.

[2]- المصدر نفسه- ص129.

3. الإطباق: Incurvée

وهو من الصفات التي أطلقت انطلاقا من حركة عضوية هي حركة اللسان وهو «أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقا له»[1] والحروف المطبقة هي الضاد والطاء والصاد والظاء، فهذه الحروف الأربعة يعتبر اللسان هو العضو الفاعل في إحداثها، ومن هذا المنطلق ركز ابن سينا في رسالته حينما تحدث عن الإطباق أو الانطباق -كما عبر عنه أحيانا بهذه الصيغة- موضحا هذه العملية إلا أن المؤلف لم يقتصر في توظيفه لهذا المصطلح على ربطه باللسان فقط، بل وظفه في الغضاريف والعضلات أيضا.

رأينا سابقا الغضاريف الحنجرية التي حددها ابن سينا، وهذه الغضاريف تتصل ببعضها البعض بعضلات تساعدها على الحركة والمرونة، وأثناء عملية التنفس تكون للغضاريف قابلية الحركة بسرعة، ومن هذه الحالات حالة انطباق الطرجهالي على الدرقي حيث يحصر النفس وتسدُّ الفَّوهة[2]، وكون هذه الغضاريف هي المشكِّلة للحنجرة التي يمر بها الهواء المنحفِزُ من الرئتين فإنه عند الانطباق أي ضيق المنفذ بين الطرجهالي والدرقي يحصر النفس، كما أن العضلات الواصلة بين الطرجهالي والدرقي تطبق لأنها هي المساعدة على هذه الحركة الفيزيولوجية[3]، فهذا حديث عن الانطباق من نوع آخر لا نجده عند النحاة وعلماء التجويد.

أما الإطباق المرتبط بالتجويف الفموي، فقد ذكره ابن سينا في موضعه الحقيقي وهو كيفية حدوث الحروف، فالصاد تحدث بإطباق سطح اللسان أو يكاد أن يطبق على ثلثي السطح المفروش تحت الحنك والشجر[4]، ومن هذه العملية أخذت الضاد صفة الإطباق حتى وإن لم يصرح المؤلف بأنها من الحروف المطبقة كما فعل النحاة مثلا، وكذلك الطاء فهي

---

(1)- ابن جني- سر صناعة الإعراب- ج1- ص76.

(2)- انظر ابن سينا- رسالة أسباب حدوث الحروف- ص66.

(3)- المصدر نفسه- ص67.

(4)- المصدر نفسه- ص77.

تحدث عن «انطباق سطح اللسان أكثره مع سطح الحنك والشجر»[1]، فالإطباق أبرز عملية في حدوث الصاد والطاء مع وجود عمليات أخرى مكملة مثل انضغاط الهواء ووجود الانقلاع، وقد ذكر المؤلف أن الإطباق موجود في لغات أخرى غير العربية مثل الفارسية والتركية، ففي الفارسية توجد "جيم" مطبقة حيث تحدث بإطباق من طرف اللسان أكثر وأشد[2]، فهي بذلك مطبقة، وفي التركية توجد "لام" مطبقة، وهذه هي الحالة الوحيدة التي صرح فيها ابن سينا بصفة منسوبة إلى حرف معين، والإطباق فيها شديد، فذكر بأن نسبة الإطباق –فيها– إلى اللام المعروفة نسبة الطاء إلى التاء[3].

ويقابل الإطباق صفة الانفتاح وهو الصفة المقابلة للإطباق ويشمل باقي الحروف، فالسين والثاء والتاء... متفتحة لأن اللسان لا يطبقه والشفتان تفتحان، ولم يرد مصطلح الانفتاح في الرسالة بالمفهوم المراد والمعروف لدى الصوتيين العرب، وإنما ذكره في سياق الحديث عن فتح الحنجرة والغضاريف وهذا باب آخر.

ويمكن القول إن ابن سينا ذكر مجموعة من مصطلحات الصفات المتقابلة ذكرا مباشرا مثل:الإطلاق والحبس والحدة والثقل نظرا لارتباطها الشديد بالحركات العضوية لأعضاء النطق فالإطلاق يكون بعد وقوع وتحقق الحبس نتيجة القرع، أي قرع عضو بعضو آخر، وبمجرد انقلاع العضو القارع عن العضو المقروع يحدث ما اصطلح عليه ابن سينا بالإطلاق، حيث ينطلق الهواء نتيجة الحركة العضوية، وكذلك مع الصوت الحاد والثقيل، فالحدة ناتجة عن ضيق اتساع الممر الهوائي في منطقة الغضاريف الحنجرية.

---

[1]– المصدر نفسه– ص79.

[2]– المصدر نفسه– ص86.

[3]– المصدر نفسه– ص91.

المبحث الثالث: المصطلحات المتقابلة غير الواردة في الرسالة

إن الاختصار الشديد الذي تتميز به الرسالة، ومنهج ابن سينا في الدراسة المعتمد أساسا على التشريح والدراسة الفيزيولوجية جعل بعض المصطلحات تغيب ولا يرد ذكرها، وقد عرفنا من خلال بعض المصطلحات المتعلقة بالصفات المتقابلة (الواردة) أنها وضعت في مقامات وسياقات غير التي وظفها فيها النحاة وعلماء التجويد إلا أن المقصود منها يقارب مقصود النحاة وعلماء التجويد.

وهذا منهج امتاز به ابن سينا بشكل واضح ولافت للانتباه، وعند تصفح كتب الصوتيين العرب واستعراض المصطلحات المتقابلة المعروفة عندهم لا نجد إلا أربعة مصطلحات غاب ذكرها عند ابن سينا. وهذه الصفات تدخل ضمن صفات حروف أخرى كالحروف المطبقة فبعضها يتميز بالاستعلاء[1] أيضا والمصطلحات الأربعة التي لم يرد ذكرها في الرسالة هي:

1. مصطلحا الاستعلاء والاستفال:

(أ) الاستعلاء: Vélarisation

وهو من صفات القوة أي القوة في الحركة العضوية والصوت الناتج عنها، ومعنى الاستعلاء«أن تتصعَّد في الحنك الأعلى[2]»، أي أن هذه الحروف يتحقق نطقها واللسان في حالة تصعد داخل الحنك الأعلى وهو ما يعطي لها أيضا صفة التفخيم لأن الفراغ الموجود بين اللسان والحنك بعد أن يرتفع اللسان بظهره يصير محصورا من الأمام والجانبين واستعمال الحرف في التصعد يدل على أن الاستعلاء صفة تدل على القوة، ورغم أن ابن سينا تحدث عن الحروف المستعلية إلا أنه لم يشر إلى هذه الصفة المهمة جدا.

(ب) الاستفال:

ويعبر عنه أيضا بالانخفاض[3]، وهو عكس ومقابل الاستعلاء، وهذا يعني أن اللسان يستفل عند نطق مجموعة من الحروف تعرف بالمستفلة وهي غير المستعلية، وأسفل هذه الحروف هي الياء، حيث ينخفض اللسان ويستوي مع السطح المفروش للفم، ورغم أن هذا

---

[1]- وهي الصاد، والطاء، والضاد، والظاء. كما أن حروف الاستعلاء كلها مفخمة.
[2]- ابن جني- سر صناعة الإعراب- ج1- ص68.
[3]- المصدر نفسه.

المصطلح لم يورده ابن سينا إلا أننا لو حللنا كلامه وحديثه عن بعض الحروف المنخفضة لوجدنا أنه تحدث عما يدل على أنه ألمح إلى أنها مستفلة، فمثلا في السين ذكر «أن الجزء الحابس من اللسان فيه أقل طولا وعرضا»[1].فلا توجد فيه القوة التي تعرف عند نطق الصاد الذي هو من حروف الإطباق والاستعلاء، كون اللسان أقل طولا وعرضا، أي انه أقل امتدادا إلى الأمام، واتساعا عرضا، وهكذا كان كلامه مع باقي الحروف غير المستعلية كالتاء والذال...

2. مصطلحاالتفخيم والترقيق: Emphase et Non emphase

(أ) **التفخيم**: Emphase

جاء في لسان العرب «والتفخيم: التعظيم، وفخم الكلام: عظَّمه»[2].

والتفخيم صفة لمجموعة من الحروف تتميز بالعظمة من حيث النطق إذا ما قورنت بحروف أخرى أقل منها وهذه الصفة نتيجة للحركة العضوية المحدثة لها، والحروف المفخمة هي نفسها المستعلية –كما ذكرت سابقا- وتجمع في قولهم: "خُصَّ ضَغْطٍ قِظْ"، وأقوى الحروف تفخيما هي المطبقة أيضا وهي: الصاد والضاد والطاء والظاء.

(ب) **الترقيق**: Non emphase

جاء في لسان العرب «ترقيق الكلام تحسينه»[3] والحرف المرقق يتميز بأن اللسان لا يتخذ الهيئة التي يتخذها عند نطق الحرف المفخم، حيث تغيب صفة الاستعلاء والإطباق أيضا، وعرفنا أن المطبقة مفخمة بالضرورة، فإذا زالت صفة الإطباق زال التفخيم، واللسان في الحروف المرققة يجسده ما قلناه عن حالته في الحروف المستفلة حيث يقل امتداده طولا وعرضا.

فهذه أربعة مصطلحات لم يرد ذكرها في الرسالة إلا أن كونها مشتركة مع بعض الصفات لاشتراك الاستعلاء والتفخيم مع الإطباق، جعل حقيقتها ومعناها مفهوما في الرسالة،

---

(1)- ابن سينا- رسالة أسباب حدوث الحروف- ص77.

(2)- ابن منظور- لسان العرب- ج12- ص449.

(3)- المصدر نفسه- ج10- ص125.

ونلاحظ أن المصطلحات المتقابلة في أصلها والتي ذكر منها المؤلف طرفا واحدا فقط، دون ذكر المصطلح الذي يقابله ليست قوية الصلة بالأعضاء النطقية كالمصطلحات الواردة.

المبحث الرابع: مصطلحات الصفات المنفردة للهغير المتقابلةلله(الواردة في الرسالة)

بعد أن انتهى الحديث عن الصفات المتقابلة الواردة في الرسالة وغير الواردةفإنه من المهم الحديث عن المقابل، وهو الصفات المنفردة، وهذا التقسيم غير وارد عند الصوتيين العرب إلا أن منهج ابن سينا الذي يحتاج إلى التوضيح بسبب الاختصار الشديد والاصطلاح المتميز يجعلني أستحسنهذا التقسيم..

والمقصود بالصفات المنفردة أن هذه الصفات لا يوجد ما يقابلها، أي أنها ليست مزدوجة، وهي كثير في كتب الصوتيين العرب، وهي صفات خاصة في مجالات نطقية معينة، وتميزت بها مجموعة من الحروف حتى صارت تعرف بها، كصفة المد التي أخذت بعض الحروف التسمية بها انطلاقا من تميزها بها وغلبة هذه الصفة عليها.

وقد وردت ثلاث مصطلحات **منفردة** في الرسالة وهي: الإشمام، والتكرير، والصفير.

1. الإشمـام:Mimique vocalique

جاء في لسان العرب أن الإشمام هو «أن تشمَّ الحرف الساكن حرفا كقولك في الضمة "هذا العَمَلُ" وتسكت، فنجد في فيك إشماما للام لم يبلغ أن يكون "واوا" ولا تحريكا يُعْتَدُّ به، ولكن شمة من ضمة خفيفة، ويجوز ذلك في الكسر والفتح أيضا. الجوهري، وإشمام الحرف: "أن يشمَّه الضمة أو الكسرة وهو أقل من دون الحركة لأنه لا يسمع، وإنما يبين بحركة الشفة»[1].

وهو عند النحاة والقراء «صبغ الصوت اللغوي بمسحة من صوت آخر، مثل نطق كثير من قيس وبني أسد لأمثال "قِيل، بِيع" بإمالة نحو واو المد... والإشمام أيضا لدى القراء وحدهم الإشارة بالشفتين إلى الضمة المحذوفة من آخر الكلمة الموقوف عليها بالسكون من غير تصويت بهذه الضمة»[2].

---

[1]- المصدر السابق- لسان العرب- ج12- ص326.

[2]- المعجم الوسيط- ج1- ص195.

وهذا يعني أن الإشمام يدركه الناظر إلى المتكلم بالعين وهو ينطق، وقد نجد الإشمام يأخذ مفهوما آخر –كما ذكر ابن سينا– وذلك في الحروف المفردة في الظاء والذال.

فالظاء تحدث بوجود حبس جزئي من طرف اللسان، وبعد الإطلاق يمر الهواء على سائر سطح اللسان وكل ذلك يتم بوجود دفع خفي جملة واحدة، والظاهر من كلام المؤلف أن سبب إطلاقه لمصطلح الإشمام في الظاء هو التذبذب الذي يعتري الحبس في الظاء الذي هو بين الشدة واللين، فضعف الحبس الذي في الظاء جعل المؤلف يشبهه بالإشمام، أما ما قاله عن الذال بأن الهواء المتسرب في خلل الأسنان، والذي لا يستمر لأن مجراه يسده من تحت، ويقصد به أطراف الثنايا العليا ليبقى قدر يسير منه فقط يتسرب من الأعلى وهو ما عبر عنه بقوله «وَيُمَكِّنُ من شَمِّه من أعاليه[1]».

فالإشمام المقصود هنا قُيِّد بحركة فيزيولوجية تُقَرِّبُ صفة من صفة أخرى، فالذال صفته قريبة من صفة الزاي في الاهتزاز، والظاء قريبة من الحروف التي تحبس حبسا مطلقا.

2. التكرير:Battement

جاء في لسان العرب «... وكرر الشيء وكرره، أعاده مرة بعد أخرى... والمكرر من الحروف الراء، وذلك لأنك إذا وقفت عليه رأيت طرف اللسان يتغير بما فيه من التكرير، ولذلك احتُسِبَ في الإمالة بحرفين»[2].

فالراء إذن هي التي تعرف بالحرف المكرر لا غيرها، إلا أن ابن سينا وظف مصطلح التكرير الذي هو صفة للراء في سياق حديثه عن الزاي التي تهتز اهتزازا يحدث في الهواء الصافر ما يشبه التدحرج في خلال المنافذ الضيقة الموجودة في خلل الأسنان[3]، ولشدة الاهتزاز فإنه يصير إلى ما يشبه التكرار، والاهتزاز القوي الذي في الزاي يكون بسطح

---

[1]– ابن سينا– رسالة أسباب حدوث الحروف– ص81.

[2]– ابن منظور– لسان العرب– ج5– ص136– (مادة كرر).

[3]– انظر ابن سينا– رسالة أسباب حدوث الحروف– ص78.

اللسان، وقد عبر عن درجة الاهتزاز باستعمال كلمتي: (يمكِّن، تمكُّنه) وهو اصطلاح استعمله النحاة كثيرا للتعبير عن قوة الحدوث، مثل الحروف المجهورة التي تعرَّف بأنها تحدث بقوة الاعتماد في موضعها، أو كما عبر عن ذلك سيبويه بقوله في الحرف المجهور: «حرف أشْبع الاعتماد في موضعه»[1].

أما الاهتزاز الذي يكون في الراء فهو شديد وأشد من الذي في الزاي، ويحدث بسطح اللسان مباشرة لا بسطح طرف اللسان، وهذا التفريق دقيق ومهم، وهو فرق آخر لأن اهتزاز سطح اللسان أقوى مع حدوث حبسات تامة متكررة.

وما جاء في لسان العرب من كلام حول التكرار وبأنه صفة للراء فقط هو ما ذهب إليه النحاة وعلماء التجويد، ولا نجد –حسب ما اطلعت عليه– أن هذه الصفة نُسِبَتْ إلى الزاي أيضا.

وذكر سيبويه أن الراء «حرف شديد جرى فيه الصوت لتكرره وانحرافه إلى اللام فصار كالرخوة ولو لم يكرر لم يجر فيه الصوت»[2]ووصْفُهُ له بالشدة يجسد قوة التكرار فيه، وهذا يعني –كما أكدنا سابقا– أن التكرار أقوى من الاهتزاز، رغم أن ابن سينا استعمل التكرار مع الزاي، ويفهم من كلام سيبويه «أن التكرير صفة ذاتية في الزاي، وإلى ذلك ذهب المحققون»[3].

3. الصفير: Sifflant

ورد في لسان العرب: «والصفير من الصوت بالدواب إذا سقيت، صفر يصفر صفيرا، وصفَّر بالحمار، وصفَّر: دعاه إلى الماء، والصافر كل ما لا يصيد من الطير[4]...»، فالصفير إذا هو عبارة عن صوت يكون أكثر إسماعا من غيره، وقد استعمله صاحب اللسان في سياقات

---

[1]– سيبويه– الكتاب– ج1– ص434.

[2]– المصدر نفسه– ص448.

[3]– ابن الجزري– النشر في القراءات العشر– ج1– ص204.

[4]– ابن منظور– لسان العرب– ج4– ص464.

تدل كلها على مدى صدى هذا الصوت وقوة تأثيره في الموجَّه إليه، وفي اللسان البشري أن الصفير مرتبط بمجموعة من الحروف تعرف بالحروف الصفيرية وهي: السين، والصاد، والزاي[1]، وقد ورد ذكر مصطلح الصفير في الرسالة في أكثر من سياق، وجاء في بعض الأحيان مع حروف ليست ضمن الحروف الصفيرية المعروفة عند الصوتيين العرب، إلا أن المؤلف –ابن سينا– حينما راح يشرح تفاصيل حدوث كل حرف وظف مصطلح الصفير مع حروف ليست صفيرية.

وأول مقام جاء فيه الصفير بلفظ آخر مع حرف الزاي الذي يحدث عن الأسباب المصفرة، ويظهر الصفير حين اهتزاز طرف اللسان وانفلات الهواء عن الحبس بين خلل الأسنان حيث توجد منافذ يتسرب منها الهواء يصدر صفيرا[2].

إلا أن اللافت للانتباه أن ابن سينا استعمل الصفير مع الجيم[3]، فالجيم ليست من الحروف الصفيرية في شيء –وهذا أخذا بما هو متعارف عليه عند معظم الصوتيين خاصة النحاةولا توجد فيها ميزة قريبة من الصفيرية، إلا أن المؤلف وسع في معنى الصفير، فجعله حتى في الهواء الذي ينفذ في خلل الأسنان وإن لم يكن فيه صفير، فالجيم من الحروف الشجرية –كما عرفنا– وحفز الهواء إلى الأمام باتجاه الشفتين يحدث فيه تسرب جزء منه من ناحية اليمين والشمال في التجويف الفموي، فيصفر ذلك الصفير الخاص بالجيم وهو قريب من الشين، وفي الوقت نفسه يتشذب[*] الهواء لاستعراضه في التجويف الأمامي للفم، أي يتفرق وينتشر على مستوى الفم، ويتسرب جزء أقل منه من خلل الأسنان وهي مرحلة تمام الصفير وانتهائه.

---

[1]– انظر ابن الجزري– النشر في القراءات العشر– جـ1– ص202.

[2]– انظر ابن سينا– رسالة أسباب حدوث الحروف– ص77–78.

[3]– كان الأصل أن يكون الحديث عن الصفير أولا، لأنه من حيث الترتيب قبل الزاي، إلا أني ارتأيت هذا الترتيب انطلاقا من الأصل إلى الفرع.

[*]– تشذب: تشذب الشيء فرقه... وتشذب القوم تفرقوا– انظر المعجم الوسيط– جـ1– ص476.

فالصفير الذي قصده ابن سينا ليس بالمفهوم الذي صُنِّفَتْ ووصِفَتْ وفقه الحروف الثلاثة وهي السين، والصاد، والزاي، وإنما هو إشارة إلى الصوت الذي يصدر عن تشذب الهواء في التجويف الأمامي للفم وتسربه من خلل الأسنان.

ومفهوم مصطلح الصفير الذي وُصفت به الحروف الثلاثة عند النحاة مثلا هو كون الهواء ينحصر بين طرف اللسان وبين الثنايا ويُصْفَرُ[1]، بينما عند ابن سينا فهو تفرق وتشذب ولذلك أخذت الجيم هذه الصفة.

4. المد واللين: Duration

ورد في لسان العرب: «اللين ضد الخشونة[2]»، فيقال: «الشيء لان لينا ولينا سهل وانقاد فهو ليْنٌ، ليِّنٌ[3]»، فهو يشير إلى السهولة في الشيء، والحروف اللينة هي **الألف والياء والواو** وتعرف بالمدية أيضا، وقد سماها الخليل **الجوفية** «لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدراج الحلق ولا من مدرج اللهاة، إنما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيِّز تُنسب إليه إلا الجوف[4]»، فعدم وجود مقاطع –بتعبير ابن جني– يتقطع فيها الصوت في هذه الحروف الثلاثة جعل الخليل يطلق عليها مصطلح الجوف فينسبها إليه،لأن الجوف يمثل أقصى نقطة يمكن أن تقدر –في نظره– في تصعد الهواء.

وقد سميت بحروف المد واللين «لاتساع مخرجها، والمقطع إذا اتسع انتشر الصوت ولان، وإذا ضاق انضغط فيه الصوت وصَلُبَ»[5]، فحالة التجاويف الثلاثة: الحنجري والحلقي والفموي المتميزة بالانفتاح والاتساع دون اعتراض أي عضو للهواء المتصعد والمتحفز من الصدر جعل هذه الحروف مدية وهوائية «لأن الألف أشد امتدادا واستطالة إذ كان أوسع مخرجا وهي: الحرف الهاوي»[6].

---

(1)– انظر ابن يعيش– شرح المفصل– مج5– ص524.
(2)– ابن منظور– لسان العرب– ج13– ص394.
(3)– المعجم الوسيط– ج2– ص850.
(4)– الخليل بن أحمد الفراهيدي– معجم العين– ج1– ص57.
(5)– ابن يعيش– شرح المفصل– مج5– ص525.
(6)– المصدر نفسه.

فالامتداد والاستطالة في الممر الهوائي يكون في هذه الحروف الثلاثة، إلا أنه في الألف يكون أكثر، ولذلك سمي بالهاوي، فأحسب أن "المد" إشارة إل امتداد الهواء عبر الممر قبل أن يكون امتدادا لهذه التجاويف، وأما اللين فهو إشارة إلى لين الممر الهوائي ككل وبعض المناطق، وبالخصوص، ففي الياء يختص اللين بوسط اللسان، وفي الواو يختص اللين بالشفتين.

المبحث الخامس: مصطلحات الصفات المنفردة غير الواردة

معظم المصطلحات لم يذكرها المؤلف في رسالته واقتصر على المصطلحات الثلاثة التي سبق ذكرها، وهذه المصطلحات التي لم تذكر يكثر ورودها في كتب النحاة وعلماء التجويد، وذلك لأهميتها هذا من جهة، ومن جهة أخرى كون منهج النحاة وعلماء التجويد يعتمد على التقسيم المعروف والمتمثل في دراسة مخارج الحروف وصفاتها، وقد درج النحاة وعلماء التجويد الذين جاؤوا بعد الخليل وسيبويه على هذه الطريقة، لأن دراستهم قائمة أساسا من أجل هذا الهدف، إلا أن ابن سينا الذي لم يصنف رسالته من أجل هذا الهدف وإنما من أجل هدف آخر مرتبطٍ بتخصصه وبمنهجه المتميز القائم أساسا على التشريح جعله لا يؤلف مؤلفه على الطريقة المعروفة عند باقي الصوتيين من النحاة وعلماء التجويد.

فابن سينا حلل حروف اللغة العربية وغير العربية من حيث **أسباب الحدوث**، وهذه الأسباب فيزيولوجية بالدرجة الأولى، وفي أثناء حديثه عن الأسنان كان يذكر ويشير وأحيانا يلمح بالمصطلحات إلى الصفات والمخارج أيضا، ولذلك فمعظم المصطلحات فيزيولوجية متعلقة بأعضاء النطق وأجزاء الجهاز النطقي ككل.

وأهم المصطلحات المنفردة التي لم يرد ذكرها في الرسالة تتمثل في:

1. الانحراف:Laturale

الانحراف من انحرف بمعنى «مال، ويقال: انحرف مزاجه مال عن الاعتدال»[1]، والمنحرف من الحروف "اللام"، وقد اعتبر الخليل الراء والنون منحرفتين، كما أن سيبويه اعتبر اللام حرفا شديدا «جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت»[2]، ويشرح ابن جني هذه الهيئة جيدا بعد أن ذكر أن اللام حرف منحرف، ويعلل ذلك«كون اللسان ينحرف فيه الصوت ويتجافى ناحية مستدق اللسان عن اعتراضها على الصوت، فيخرج الصوت من تلك الناحيتين ومما فويقهما»[3]، وهو الكلام نفسه الذي ذكره ابن يعيش في شرحه المفصل.

---

[1]- المعجم الوسيط- ج1- ص167.

[2]- الخليل بن أحمد الفراهيدي- معجم العين- ص52.

[3]- ابن جني- سر صناعة الإعراب- ص77.

فنتيجة ذلك الضغط الناتج عن قوة حفز الهواء وقرع اللسان لسطح مقدم الحنك فينحرف اللسان، ويحدث تسرب للهواء من جانبي مستدق اللسان، وهذا التسرب من ناحيتي مستدق اللسان جعل اللسان لا يلتصق بالمقروع، ويحدث انحباس تام في الهواء، وهو ما جعل النحاة يقولون عنه: إنه **بين بين**، وهذا لا يناقض ما ذهب إليه سيبويه بأنه حرف شديد، فهي "اللام" «شديدة في الأصل وإنما يجري النفس معها لاستعانتها بصوت ما جاور الرخوة كالعين التي يستعين المتكلم عند لفظه بها بصوت الحاء، وكاللام التي يجري فيها الصوت لانحرافها واتصالها بما قدمنا ذكره من الحروف[1]»، فجري النفس في اللام هو نتيجة انحراف اللسان وتجافي ناحيتي مستدق اللسان عن اعتراضهما على الصوت جعلها بينية أي بين الشديدة والرخوة، فالشديدة يمنع فيها الصوت من أن يجري، والرخوة يجري فيها الصوت.

2. بين بين (البينية): Intermédiaires

يستعمل الصوتيون العرب خاصة النحاة مصطلح "بين بين" بكثرة في كتبهم وهو «بمعنى التوسط بين الشيئين»[2]، والحروف البينية أو التي بين بين تجمع في قولهم "لن عمر" وهي المتوسطة بين الشدة والرخاوة، وقد تعتبر ثمانية بإضافة حروف المد واللين الثلاثة، وذكر ابن يعيش أن هذه الحروف الثلاثة شديدة في أصلها، إلا أن وجود نَفَسٍ فيها أخرجها من الشدة التامة، وهذا النفس يجعلها قريبة من أحد الحروف (أي من حرف آخر مقارب لها)، فالعين –مثلا– يستعان فيها بـ"الحاء" المهموس والرخو، والنون يستعان فيها بصوت الخياشيم، وهو الغنة الصادرة من الأنف، وحرف الميم كذلك، واللام لوجود الانحراف في اللسان ينتج عنه تسرب الهواء من جانبي مستدقه فتضعف تلك الشدة، والراء لوجود عدم استقرار في حالة واحدة للسان لأنه يقرع في الموضع مرات فيكون الحبس متقطعا والشدة ضعيفة.

---

[1]– ابن يعيش– شرح المفصل– مج5– ص524.

[2]– انظر ابن الجزري– النشر في القراءات العشر– ج1– ص202.

أما حروف المد واللين فجريان الصوت يبقى مستمرا فيها، ومصطلح بين بين أو البينية من المصطلحات الغائبة في الرسالة أيضا إلا أن الباحث عندما يرجع إلى هذه الحروف، وينظر في شرح ابن سينا لكيفية حدوثها يلحظ أنه حدد صفاتها، ولكن بطريقته الخاصة، فالميم مثلا: عبر عنها بأن الحبس فيها تام غير قوي، وقوله حبس تام[1] إشارة إلى انقلاب الشفتين تماما، وهذا الحبس لا يمنع الهواء من التسرب لأنه يتجه إلى ناحية الخيشوم فيصدر غُنَّة وفي الراء يكون الحبس متكررا.

3. القلقلـة:Vocalisation

يقال: «قلقل في الأرض: ضرب فيها، وقلقل الشيء حركه»[2]فهو يدل على الحركة والاضطراب في العضو، وحروف القلقلة خمسة هي: القاف، والجيم، والطاء، والدال، والباء، وهي مجموعة في قولهم "قَدْ طَبَحَ" أو "قطب جد"، وهذه الحروف «تخفى في الوقف وتضغط في مواضعها فيُسمع عند الوقف على الحرف فيها نبرة تتبعه»[3]، فنطق هذه الحروف في ثنايا بنية الكلمة يختلف عنه في نهايتها لوجود صوت يتبعها يجعلها شبه خفية، وتسمع تلك النبرة التي تقرع الأذن، فلا يمكن الوقوف على أحد هذه الحروف بالنطق العادي –في النطق الصحيح– إلا مع وجود صوت يتبعها، وذلك لشدة الحصر والضغط في الهواء[4].

ويوضح ابن الجزري أهمية هذه القلقلة في هذه الحروف وسببها، بأنها عند الوقوف عليها ساكنة تشبه غيرها، فلا بد حينها من صوت يميزها عن غيرها، وهذا الصوت في السكون يكون أبين منه في حالة الحركة، وفي الوقف أمكن[5]، ولم يرد مصطلح: القلقلة عند ابن سينا إلا أنه ذكر الأسباب المؤدية إلى القلقلة في بعض المواضع، كما في الطاء ذكر انضغاط الهواء[6].

---

(1)– انظر ابن سينا– رسالة أسباب حدوث الحروف– ص83.

(2)– المعجم الوسيط– جـ2– ص756.

(3)– ابن يعيش– شرح المفصل–مج2– ص524.

(4)– المصدر نفسه.

(5)– انظر ابن الجزري– النشر في القراءات العشر– جـ1– ص203.

(6)– انظر ابن سينا– رسالة أسباب حدوث الحروف– ص79.

4. المهتوت: Aspiré

تختص هذه الصفة بحرف التاء «وذلك لما فيه من الضَّعف والخفاء من قولهم رَجُل مُهِتٌّ وهتَّات، أي خفيف كثير الكلام»[1]، وقد وصف الخليل الهمزة بأنها مهتوتة مضغوطة[2]، وكأنه لاحظ وجود لين إلى جانب الضغط الذي تتميز به الهمزة.

[1]- ابن يعيش- شرح المفصل- مج5- ص525.

[2]- انظر الخليل بن أحمد الفراهيدي- معجم العين- ص52.